غادة شريم

جودت حيدر

جودت حيدر تاريخ يبدأ ولا ينتهي، آت الينا من قلعة بعلبك العصية على الزمن. تقاطع إرثه الثقافي اللبناني مع الإرث الثقافي الأميركي في كتابات باللغة الانكليزية اشتهرت بمخارجها الشعرية المتجانسة والراقية،

جودت حيدر هو الشاعر المتأثر بأساليب الحقبة الرومنطيقية الحديثة في الأدب أعاد إحياءَها في زمن العقل والتطور. وهو ايضاً شاعر الوجدانيات التي تحتل مساحات واسعة من كتاباته.

هو شاعرُ اللطف لا العنف، المحبة لا الكراهية، ولكن هذه الوداعة تُخفي جانباً ثورياً رافضاً للظلم والخنوع وهذا الرفض يظهر جلياً في شعره الذي لم يكن بالنسبة اليه مجرد صنعة او موهبة، او هواية، بل نشاطاً وجودياً وانسانياً الى أبعد الحدود.

والحقيقة انه اذا راجعنا حقل شعره المُعجمي للاحظنا ان قسماً كبيراً من قصائده تتمحور حول الحرية والحياة التي تشبث بها حتى النهاية،ولكن وايضاً حول البحر، الغابة، الأشجار الخيول، الريح والتي يمكن ان نربُطها كلها بهذه النزعة الثورية الرافضة لكل اشكال الظلم.

احب البحر وذكر الف مرة ومرة في قصائده، بنى معه علاقة خاصة وتشبه به معبتراً أنه مثله يعيش في صراع متواصل، ويقول في هذا السياق:

يا بحرُ ارفع امواجك

واغسل سواحلنا المغربة

وارفض الموت والاستسلام

كما المناضلُ في.

وكما البحر واجه بصلابة وتحدى السنين كيف لا وهو اصدر ديوانه الاول " ***أصوات*** " وهو في الخامسة والسبعين اي متأخراً جداً عن السن التي تعودنا أن يصدر فيها الشعراء أعمالهم الأولى.

وأصدر ديوانه الثاني " ***أصداء*** " بعد أن تجاوز الثمانين ثم أصدر ديوانه الثالث " ***ظلال*** " وهو في الرابعة والتسعين وبقي مقبلاً على الحياة بعد أن تجاوز المئة فبدا كالبحر وكما يقول : " صامداً ابدا متحدياً العصور". فالبحرُ عنده عنوان للتحدي إذ نقرأ :

عاد المحيط الحالم الى المهمة

مثل حشد من الخيول غاضبة

تجتاح الشاطئ بحوافرها

تلوح وتلتف في اندفاع مجنون

والدخانُ يتصاعد في انوفها النارية

كان كالبحر يُخفي خلف هدوءه ووساعة افقه ومداه الحالم ثورةً عامرةً قادرةً، على قلب المقاييس وتغيير المعايير.

يقول في حرب النجوم:

Je suis le fleuve, l'océan et le courant directeur

Je peux transformer l'eau en sable d'or

أنا النهرُ، والمحيطات، والتيار

قادرٌ على تحويل الماء الى ذهب الرمال.

وكما هو الحال مع البحر، يكثرُ ذكرُ الغابات في شعره، قد تقولون ان الامر طبيعيٌ لان حيدر رومنطيقي الهوى وكالرومنطيقين يناجي الطبيعة. ولكن عند قراءة قصائده نلاحظ ان علاقته معها لا تقتصر على المناجاة، بل تتعداها الى ما هو ابعدُ من ذلك، فهو يرى في اشجارها شموخاً وارتفاعاً وقدرة على تحدي هزات الزمان، وهي أيضاً وسيلة للارتقاء الى العلى الذي يتوق إليه، يقول مثلاً :

تسلقت الاشجار العالية .....

تمسكت بها .....

شعرت بأني على قمة العالم .....

على العموم، العلوُ، الارتفاعُ، النظرُ الى الاعالي والإقامة فيها كلها معان تُميز شعر حيدر وتتكرر باستمرار، يقول:

انظر الى العجائب في الاعالي

تتحرك وتموج بلا هوادة

وفي قصيدة: " في عيد ميلادي الثمانين نقرأ :

"انا الان فوق جسر الزمان"

كلمة "***جسر***" تعني الكثير وترمز الى التواصل والانفتاح والتلاقي مع الأخر ولكن اللافت اكثر في العبارة هي كلمة "***فوق***" التي ترمز الى الاعالي الى الرؤية الشاملة والواسعة.

هذه النزعة الى الاعالي انما تجسد احلام وطموحات حيدر سواء على المستوى الشخصي او الوطني او الانساني.

فعلى الصعيد الشخصي، كان حيدر انساناً وشاعراً ثائراً على كل ظلم يلحق بالإنسانية او بموطنه، عاند المستعمر ولم يكن قد تجاوز الثامنة واستمر طيلة حياته يواجه بالحق ويسعى الى الحقيقة مهما كان ثمنُها.

اراد تسلق جبال المعرفة، وكرر صورة التسلق والصعود في اكثر من مكان. في قصيدة ***الرجل الخارق*** نقرأ: "***ليتني استطيع ان اتسلق سُلم السنين*** " في مكان اخر " ***استرجعت فترات المجد وأنا اتسلق برج العمر***"، وايضاً " ***حبذا سلّم نرقى به الشعرَ الى السماء***".

وكذلك تتكرر في شعره صورة التحليق والطيران الى فضاء الحرية، ففي قصيدة "***الرجل الخارق***" ايضاً نقرأ : "***كم اتوق لأسرج حصاني وأطير***" وفي قصيدة اخرى:

فكرت في وسيلة لأنهض،

لأحلق في الاعالي في السماء الموعودة.

على الصعيد الشخصي ايضاً رفض الموت وربط بين هذا الرفض والتوق الى الاعالي فتشبه بطائر الفنيق. يقول على سبيل المثال:

لم لا اعيش بإرادتك ثانية .....

فابقى...

الرجل الخارق الذي يموت

ويعيش ثانية...

هذا الانبعاث من الموت على طريقة طائر الفنيق، يُجَسد ثورة انسانية فلسفية على مصير الانسان المحتم ألا وهو الموتُ والزوال.

اما على الصعيد الوطني، فقد كان حيدر يحلم بلبنان الشعر والحرية الباقي "***كسيوف الشعراء بالفكر الثاقب الوضاح***".....

ثار على وضع اللغة العربية التي برأيه كانت لتكون من أعظم لغات العالم، لو اهتم ابناءُها بها كما اهتم الاجانب بلغاتهم وكتب في مشوار العمر وفي هذا السياق: "***لقد كانت اللغة في فترات من التاريخ موافقةً لأبنائها... لكنها توقفت وسار الزمن حتى أصبحنا اليومَ ننظم ونقول الشعر بلغة توقفت أكثر من اثني عَشَر قرناً من الزمن، لم نحاول تطويرها.....***" وفي مكان اخر، يقول "***الحقيقة ان العيبَ ليس في هذه اللغة الحية، انما في أبنائها الذين تقاعست هممُهم ..... ولم يبق لهم من الوقوف الى جانب لغتهم الا انتقادها***".

ثار أيضاً على اهمال العرب لماضيهم الحضاري والأدبي، يقول "***الشعراء في بلاد الغرب لهم مكانتهم العالية بعد وفاتهم.... كم تمنيت ان يعامل الادباء والشعراء في بلادنا المعاملة نفسهَا من جانب الحكومات ..... اين قبر المتنبي ؟؟؟ اين قبر المعري المهمل ؟؟ اين قبور الشعراء الذين اعطوا هذه الامة مجدهَا وحافظوا على كرامتها ؟؟؟***"

من هنا يمكن ان نفهم إصراره على إعادة تمثال "خليل مطران" الى بعلبك، التي جاءت ضمن نشاطات "واحة الادب في البقاع" التي أسسها جودت حيدر، ووالدي الدكتور يوسف شريم هو احد أعضاء هيئتها الادارية التأسيسية. قال في هذه المناسبة "***خليل مطران عملاق في مسيرة عمالقة كثيرين نسيناهم حتى كاد ان ينسانا الجمال في هذا الوطن الجميل***".

كان منفطرا على التنوع الديني وتعدده السياسي والثقافي، مدركاً ان الابداع لا يأتي إلا من خلال التنوع. كتب في القضايا العربي كالقضية الفلسطينية التي كانت تؤرقه كما وآلمته الحرب اللبنانية فعبر عن اسفه وحزنه العميقين وكتب قصيدة للمقاومة اللبنانية .....

على الصعيد الانساني واكب عصره وابدى كل احترام للعلم والتطور، لكنه في نفس الوقت ثار ثورةً عامرة على المشاكل التي تسببُها التكنولوجيا، وانتقد العلماء الذين اضاعوا البوصلة وشوهوا الطبيعة ولوثوها وتسببوا مباشرةً او غيرة مباشرة بالحروب المدمرة للإنسان اولاً، وللطبيعة والبيئة ثانياً يقول:

"***التلوث ليس مجرد كلمة، بل مصيبة***

نشعر به في تنفسنا، انه يبلغ قلوبَنا

الدخانُ والضجيجُ والغازاتُ كلها تحمل السُقمَ

السمُ هنا وهناك الترياق "

ثار على الظلم وحلم بمدينة فاضلة، في رؤية تنويرية وبمجتمع ينعم بالمساواة والإخوة وتكافؤ الفرص.

'فسر لهم ما الحرية والمساواة وايضا

ما الاخوة وإعطاء الذات "

ناصر المرأة وأحبها وأراد لها الارتقاء الى اعلى المراتب، وحَلمَ بمجتمع يتكاتف فيه الرجال والنساء في سبيل الافضل. يقول في قصيدة '*النساء*" :

جنباً الى جنب، نكون فريقاً متماسكاً

لأجل خير أرضنا، نبني

ارضَ الديمقراطية التي نحلم بها

يزدهرُ فيها السلامُ والمحبةُ والحرية.

تجلت قيمُه الانسانية والاخلاقية والاجتماعية في شعره وأراد له ان يكون عالمياً انسانياً حضارياً يرفع فيه للحرية علماً وللسلام والتسامح ومجد الانسان عنواناً :

السلام هو مجدُ الحياة الحقيقية

أحفظ ذلك في رأسك حتى في نضالك

.....

هو حماس الايمان في مجدك اللامتناهي

كان جودت حيدر متقدماً على عصرنا وزماننا لا شك، ثائراً، حالماً ولكنه كان يخبئ حزناً وجودياً دفيناً ينبع من عجزنا عن مقاومة الزوال والاندثار مهما كَبُر قدرُنا ومهما قاومنا وحلمنا فنسمعه يقول:

" العمر يحترق كالهشيم والنادر فيه يبقى وميضُ ماس في الرماد "

وميض الماس هذا هو في الكنوز الفكرية التي تركها لنا حيدر على شاطىء الخلود هو الذي وعند الوداع قال:

" تنشق يا صاحبي رياحَ الشباب وانسَ الكهولة والعذاب

واذكر صهيلَ الخيل وهمسَ العذارى وحنينَ الاحباب

..... قف بشجاعة قبل الغروب

واستغفر الله عند الغياب "